الترادفُ الدلاليّ بين صيغتي افتعَلَ وتفاعَلَ

د. خلف عايد الجرادات *

تاريخ تقديم البحث: 2011/11/27 تاريخ القبول: 2012/11/5

ملخــص

يدرس هذا البحث معنى المشاركة الصرفيّ في صيغتي (افتعل، وتفاعل) إذ تترادف الصيغتان على معنى المشاركة صرفيّاً، في مثل: اختَصَمَ وتَخَاصَمَ، واستبَقَ وتسابقَ، واقتتلَ وتقاتلَ.

وهدف البحث هو الكشف عن حقيقة ما ظاهره أنّه ترادف الصيغتين على معنى المشاركة.

وقد خلص البحث إلى نفي الترادف بين الصيغتين صرفيّاً على هذا المعنى، وقامَ على فرضيّة أنّ الصيغتين غير مترادفتين على معنى المشاركة صرفيّا، وأنّ صيغة(افتعل) تفيد المشاركة متلبّسة بمعنى قوتها، لأنّ معنى قوّة الفعل والمبالغة فيه متأصل في هذه الصيغة، أمّا (تفاعل) فتفيد معنى المشاركة مجرّداً، دون قوتها، وهذا هو الفرق الجوهريّ بين الصيغتين في هذا المعنى.

وقد رصدتُ من الأدلة النظرية والنصوص الفصيحة ما يؤكد صحة هذه الفرضية.

Linguistic Synonymy between the Forms of "'Fta'ala" and "Tafaa'la"

Abstract

This research studies the meaning of morphological sharing in the two forms ('fta'ala) and (tafaa'la) since the two forms are sequenced to have the meaning of sharing morphologically as in ('ikhtasama-takhaasama "quarrelled"), ('istabaga-tasaabaga "anticipated") and ('igtatala-tagaatala "fought"). The research aims showing the reality what appears to be sequencing for the two forms to have the meaning of sharing.

The research tried to refuse that sequencing the two forms morphologically has this meaning, and it was based on the hypothesis that the two forms are not sequenced to have the meaning of sharing morphologically and that the form ('ifta'ala) gives the meaning of sharing covered with the strength of its meaning since the strength of the verb and the exaggeration in this form are meaning inherent in it, whereas (tafaa'la) gives only the meaning of sharing, without its strength. This is the fundamental difference between the two forms in meaning.

I have presented theoretical evidence and formal texts proving the hypothesis.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة جرش.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

مقدمة

ترادف المفردات المعجمية على معنى واحد أو ترادف الأسماء على مسمّى واحد من المسائل اللغوية التي لاقت عناية كبيرة من اللغويين القدامى والمحدثين، وهي أيضاً من المسائل المشكلة التي اتسع الخلاف فيها، وكان محور الخلاف منصباً على ميدان الظاهرة تضييقاً وتوسيعاً، حتى ظهر من القدماء ومن المحدثين من أنكر الترادف برمته، لكنّ الأغلب على عدم الإنكار، فهي ظاهرة ملموسة في واقع اللغة، لا يمكن إنكارها، ضمن شروط محددة لا تجعلها تتوسع التوسع الذي ركبه بعضهم، فجعل من المتقارب مترادفاً، ولا يتسع المقام هنا لبسط المسألة برمتها، فقد كفانا بعض الدارسين مؤونة ذلك بدراسة مستقلة لهذه المسألة الشائكة، وفيها مقنع لمن أراد الاستزادة[1].

أمّا هذا البحثُ فإنّه يعالج مشكلةَ الترادف بين الصيغتين الفعليّتين(افتعلَ وتفاعلَ) في معنى المشاركة صرفيّاً، نحو: اختصم وتخاصم، واقتتل وتقاتل، واستبق وتسابق، وهل يمكن عَدُّ هذا التوارد ترادفاً تامّاً كما هو مذهب كثير من القدماء، لغويّين ومفسّرين، وإن صحَّ ذلك فما هو مسوِّغ عدول بعض الاستعمالات الفصيحة إلى إحداهما عن الأخرى لا سيّما في القرآن الكريم؛ إذ غالباً ما يجنح إلى صيغة (افتعل) للدلالة عل المشاركة دون (تَفاعَلَ) على الرغم من أنّ معنى المشاركة الصرفيّ أظهر في الأخيرة.

ففي قوله تعالى ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾[2] تخيَّر النص الحكيم (نستبق) على (نتسابق)، وفي قوله تعالى ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا﴾[3] اختار (اختصموا) على (تخاصموا) إلى غير ذلك من أمثلة.

إنّ القول بترادف الصيغتين على معنى المشاركة يجعل تخيُّر إحداهما على الأخرى أمراً شكليّاً محضاً؛ لأنّهما إذ ذاك لا تعدوان أن تكونا بدائل لفظيّة لمعنى واحد.

إنّ هذه المشكلة تنبثق من مشكلة أوسع وأعمّ وهي ترادف الصيغ الصرفيّة عامّة في المعنى الصرفيّ، وقد تنبّه القدماء إلى بعض تجليّات هذه المشكلة فأفردوا مصنفات عديدة لكلٍّ من فَعَل، وأفْعَلَ، وما بينهما من اتّفاق واختلاف، غير أنّ جزءاً كبيراً من هذه الظاهرة لا يزال مفتقراً إلى البحث والاستقصاء والتدقيق.

إنّ غرض هذا البحث هو الكشف عن حقيقة ترادف الصيغتين المذكورتين في معنى المشاركة، فإمّا أن يكون ترادفاً تامّاً لا تختلف فيه إحدى الصيغتين عن الأخرى، وإما أن يتّجه

(1) انظر: الجارم، علي، "الترادف" ، **مجلة مجمع اللغة العربية الملكيّ**، القاهرة، العدد الأول، أكتوبر 1934م، ص 303- 331.
الزيادي، حاكم مالك ، **الترادف في اللغة**، ط1، دار الحرية للطباعة ، بغداد، 1980م.

(2) يوسف 17

(3) الحج 19

البحث إلى نفي الترادف الكامل بينهما باختلافهما الدقيق في معنى المشاركة، وأنّ في إحداهما فضل معنى ومزيّة ليست في الأخرى.

وقد أقرَّ البحث بنفي الترادف بين الصيغتين على معنى المشاركة صرفيّاً، وقامَ على فرضيّة عدم ترادفهما؛ لفرقٍ دلاليّ لطيف يصلح أن يكون مسوِّغاً لتخيُّر الاستعمال الفصيح إحداهما في موضع والأخرى في موضع آخر، وذلك لاختلاف الإشارة الدلاليّة لكلٍّ منهما. (فتفاعَلَ) تؤدّي معنى المشاركة مجرّدةً، كقولنا: تسابق القوم: أي اشتركوا في السباق، وتخاصموا: اشتركوا في الخصام، على حين أنّ معنى المشاركة في (افتعل) طارئ، وقد خالط المعنى الأساسيّ فيها الّذي هو قوّة الفعل أو المبالغة فيه، فاستبق القوم: أي تسابقوا بقوّة وشدّة، واختصموا: اشتركوا في الخصام بقوّة وشدّة، وليس مجرّد اشتراكهم في معنى الفعل.

ولإثبات صحة الفرضيّة السابقة عمدتُ إلى بعض المصادر والمراجع الصرفيّة ورصدتُ معانيَ الصيغتين جميعاً، مبيّناً انحياز كلِّ صيغة إلى معنىً رئيس في الأغلب وإن داخلتها معانٍ أُخَر، ثم بيّنتُ كيف خالط معنى المشاركة صيغة (افتعل) على الرغم من أنّه ليس من معانيها المتأصّلة فيها، وأنّ معنى المشاركة متأصّلٌ في (تفاعَلَ) وهي أولى به من (افتعل).

وقد بينت أنّ إطلاق المعاني لا يخلو من التوسّع والتجوُّز؛ إذ تداخل بعضها ببعض، وقد جانبَ الدقّةَ حَمْلُ بعض الأمثلة على معانيها، وهو ما يدلُّ على اعتياص مسألة المعاني الصرفيّة للصيغ الفعليّة، وأنّ ما يشبه الإجماع على ترادف (افتعل وتفاعل) على معنى المشاركة يمكن مخالفته بزيادة توضيحيّة عليه في هذا البحث.

ثم عمدت إلى عرض المذاهب النظريّة التي تؤيّد عدم ترادف الصيغ على المعاني الصرفيّة، ثم التمست نصوصاً وشواهدَ فصيحة عزّزتُ بها ما ذهبت إليه.

أمّا مصادر البحث فقد تنوّعت ما بين القرآن الكريم وتفاسيره والمصادر الصرفيّة والمعاجم والمجاميع الأدبيّة والدواوين الشعريّة، ومجموعة من الدراسات الحديثة.

أمّا فيما يتعلق بالدراسات السابقة فإني لم أعثر على مُصنَّف أو دراسة استقلّت بهاتين الصيغتين من هذا الجانب، ولكن تناثرت الإشارات وحامت حول حمى الموضوع، وأثبَتُّ ذلك في أثناء البحث، وتكاد تكون دراسة عودة الله القيسيّ، وهي: «سر الإعجاز في تنوّع الصيغ المشتقة من أصل لغويّ واحد في القرآن» أقرب الدراسات إليه على الرغم من أنّني لم أجد فيها من موضوع هذا البحث إلا النادر جدّاً، ولعلّ السبب هو سعة الباب الذي دخلت منه تلك الدراسة لأنّها تناولت المشتقات كلّها، ولم تقتصر على الأفعال بلْهَ بعض صيغها، فلم أجد عنده مما تناولتُه في بحثي هذا سوى (اشتبه وتشابَهَ)، وقد اعتمد في تفسيره لهما على ما نقله عن القدماء من مفسّرين وعلماء قرآن.

ولا تفوتني الإشارة إلى أنّ بعض كتب فاضل السامرائي، مثل: معاني الأبنية في العربيّة، وبلاغة الكلمة في القرآن قد صالت وجالت في هذا الميدان ولكنّها لم تسعفني في بحثي هذا إلا بالقليل جدّاً، لأن ميدان تلكم الكتب كان عامّاً في الصيغ والمفردات والأفعال والأسماء. وهو الأمر ذاته في بعض الكتب التي استقلت بالأبنية الصرفية ومعانيها، مثل: أبنية الصرف في كتاب سيبويه، لخديجة الحديثي، وأوزان الفعل ومعانيها لهاشم طه شلاش، إذ لم أجد فيها غير ما تناثر في المصنفات القديمة فيما يتعلق بصيغتي: افتعل وتفاعل وهما مدار بحثي.

وكان منهج نظري في البحث وصفيّاً، فمن الصعوبة بمكان تتبع الصيغتين المذكورتين تاريخيّاً، وإن كان يبدو لي أن تطور الدلالة والتوسع في الاستعمال هو من الأسباب التي تؤدي إلى الترادف، وهي مسألة تاريخية، لكنها ليست السبب الرئيس أو الوحيد، فلصعوبة المعطيات التاريخية زيادة على دراسة واقع لغوي محدد اتجهت الدراسة إلى المنهج الوصفي.

1. المعاني الصرفيّة لكلٍّ من (افتعل)، و(تفاعل)

تأتي هاتان الصيغتان الصرفيّتان على مجموعة من المعاني الصرفيّة استقصاها النحاة[1]، ودارت في مصنفاتهم قديماً وحديثاً، فمن معاني افتعل: المطاوعة، نحو: ازداد، واهتدى، ومعنى الثلاثيّ، نحو: اتّبع، واختصّ، وبمعنى استفعل، نحو: اعتصم، واقتبس، والاتخاذ، نحو: اتّقى، واشتوى، والمشاركة (بمعنى تفاعل)، نحو: اختصم، واجتور القوم، أي تجاوروا، والتصرف والاجتهاد، نحو: اكتسب، واقتدر، والخطفة، نحو: انتزع، واقتلع، وبمعنى تفعّل، نحو: ادّخل، وادّلج، أي: تدخّل، وتدلّج.

وأمّا معاني تفاعل، فهي: المشاركة، نحو: تبايعتم، وتداينتم، والمطاوعة(من فاعَلَ)، نحو: تعاطى، وتوارى، ومعنى الفعل الثلاثيّ، نحو: تجاوز، وتجافى، وتعالى، والتكلّف، نحو: اثّاقلتم (تثاقلتم)، وتناسوا، والروم، نحو: تقاربت من الشيء، وتراءيْت، والإيهام، نحو: تغافلت، وتعاميت،

(1) انظر: سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان(180هـ/796م) **الكتاب**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط 3، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1988 ، ج4/69، 74. ابن عصفور،أبو الحسن، علي بن مؤمن(669هـ/1270م) **الممتع الكبير في التصريف** ، تحقيق فخر الدين قباوة، ط1، مكتبة لبنان، لبنان، 1996م، ص 125، ابن مالك، جمال الدين محمد بن عبدالله(672هـ/1273م) **شرح التسهيل**، تحقيق: عبدالرحمن السيد، محمد بدوي المختون، ط1، دار هجر، القاهرة 1990م، ج3/455 وما بعدها، الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن(686هـ/1269م) **شرح شافية ابن الحاجب**، تحقيق: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، ج1/ 109، أبو حيان الأندلسيّ، محمد بن يوسف (745هـ/1344م)،**ارتشاف الضرب من لسان العرب**، تحقيق: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبدالتواب، ط1، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1998م، ص 172، 175، السيوطي، جلال عبدالرحمن بن أبي بكر(911هـ/1505م) **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق: عبدالعال سالم مكرم(بالاشتراك مع عبدالسلام هارون في1، 2)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992م، ج6/22 وما بعدها، عضيمة، محمد عبدالخالق، **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، دار الحديث، القاهرة، بلا تاريخ، القسم الثاني، الجزء 1، 508

وبمعنى تَفعّل، نحو: تعاهدَ، أي تعهّد، والطلب، نحو: تقاضيت الديْن، أي استقضيته، والتدرّج، نحو: تساقط، وتقاربَ.

وهذه هي كلّ المعاني المستقصاة للصيغتين المذكورتين، ويبدو لي أنّ الأمر لا يخلو من توسُّع في تفصيل هذه المعاني، وهو ما أدّى إلى تكثيرها وتداخل بعضها في بعض، إذ إنّ تحميل الصيغ بعض المعاني ليس دقيقاً، فليس من السهل التسليم بقولهم-مثلاً- إنّ (اتّبع، واختصّ) بمعنى الفعل الثلاثيّ ، إذ لا يخلو الأمر من فرقٍ بين خصّ، واختصّ، وتَبِع واتّبع، وإني لأجد ريح المبالغة أو القوّة في المزيد من الصيغتين السابقتين، وهو تفريق أشاروا إليه حين وقوفهم على كَسَب واكتَسَب؛ بأن اكتسب فيها تصرُّف واجتهاد لا يوجد مثله في كسب[1].

وقد ذكر ابن جنيّ في قراءة (يَدَّرسونها)[2]: «هذا يفتعلون من الدرس، وهو أقوى معنى من يَدْرُسونها، وذلك لأنّ افتعل لزيادة التاء فيه أقوى من (فَعَل)، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾[3] فهو أبلغ معنىً من قادر»[4].

ومسألةُ المعاني مسألة مُختَلَفٌ فيها منذ القدم، فقد أورد ابن سيده ما يدلُّ على اختلاف سيبويه وغيره على المعاني الصرفيّة في صيغة افتعل، قال: «قال سيبويه: ... وأمّا اكتسب فهو التصرّف والطلب والاجتهاد، غيره: لا فرقَ بينهما، قال الله عز وجل: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وعلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾[5] والمعنى واحد»[6]. والقول نفسه في حَملهم (افتعل) على معنى (استفعل) في مثل: اعتصم، واقتبس، إذ لا يخفى الفرق بين اعتصم واستعصم، قال الراغب الأصفهانيّ: « الاعتصام: التمسّك بالشيء، قال ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾[7]... واستعصم: استمسك، كأنّه طَلَب ما يعتصم به من ركوب الفاحشة، قال ﴿ فَاسْتَعْصَمَ﴾[8]، أي تَحَرّى ما يعصمه»[9].

---

(1) انظر: سيبويه، الكتاب 74/4، ابن جنيّ، أبو الفتح عثمان بن جنيّ(392هـ/1001م)، **المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها**، تحقيق: علي النجدي ناصف وصاحبيه، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، القاهرة 1994م، ج195/2، العسكريّ، أبو هلال الحسن بن عبدالله(395هـ/1004م) **معجم الفروق اللغوية**، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ط1 مؤسسة النشر الإسلامي، إيران 1412هـ، ج452/1، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر(911هـ/ 1505م)، **الإتقان في علوم القرآن**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م، ج300/3

(2) سبأ 44، وهي قراءة شاذة لأبي حيوة، وفي المصحف (يَدرسونها) من غير تشديد.

(3) القمر 42

(4) ابن جني، المحتسب 195/2

(5) البقرة 134

(6) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل(458هـ/1065م)، **المخصص**، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1996م، ج312/4

(7) آل عمران 103

(8) يوسف 32

(9) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد(502هـ/1108م)، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: عدنان صفوان الداودي، ط1، دار القلم-بيروت، دمشق، 1412هـ، ص570

ويبدو أنّ المعنى المعجميّ قد اختلط على الناظرين بالمعنى الصرفيّ في بعض الصيغ، فقد عدّ بعضهم التخَيُّرَ من معاني الافتعال، ممثِّلاً على ذلك بالأفعال: اصطفى، وانتقى، وانتخب، واعتمى، واجتبى[1]، ولا يخفى أنّ التخيّر في هذه الأفعال هو معناها المعجميّ.

وكذا معنى الخَطْفَة، مثل: انتزع، واقتلع؛ إذ لا أراه إلّا داخلاً في معنى التصرّف والاجتهاد المشار إليه أو في معنى المبالغة.

وإنّه ليلوح لي ذلك الرباط الوثيق بين صيغة (افتعل) ومعنى القوّة في الفعل، أو في أدائه، وهو المعنى الذي ألمحَ إليه كثيرٌ من القدماء بعبارة التصرّف والاجتهاد عند تفريقهم بين فعَلَ وافتَعَلَ صرفيّاً في مثل: كسبَ واكتسبَ كما سبقت الإشارة.

ومعنى القوّة في صيغة (افتعل) هو معنى أساسيّ فيها كما يتراءى لي، لا يكاد يخلو منه سائر معانيها، إذ لا تخفى القوّة في مثل ازداد، واهتدى اللّذين حُمِلا على معنى المطاوعة، فالصيغة في ازداد، واهتدى، تعنى المطاوعة إذا قُرِنت بالثلاثيّ، نحو: زدته فازداد، وهديته فاهتدى لكنّها تدلّ على قوّة الفعل إلى جانب ذلك، إذ صدر الفعل من الفاعل ذاتيّاً دون أن يتعرّض إلى أثَرٍ خارجيّ، فقد فسّر ابن درستويه قول النبي صلّى اللهُ عليه وسلّمَ: ((مَن بكّر وابتكر، وغسَّل واغتسل، ودنا واستمع...)) أ.هـــ الحديث، قال: «وإنّما المعنى: مَن بكّر بغيره وابتكر هو، أو مَن بكّر به غيره فانقاد للبكور، ومَن غسّل غيرَه واغتسل هو...»[2]، وعدّ ابن مالك من معاني افتعل:« والذي لفعل الفاعل بنفسه، نحو: اضطرب، وائتكل من الغيظ، وارتعد من الحمّى، وارتعش، واختتن، واختصّ، واستاك، وامتشط، واكتحل، وادّهن»[3].

ولا يخفى معنى قوّة الصيغة في سائر المعاني المذكورة، فقد أشرت سابقاً إلى عدم دقّة حمل (افتعل)، نحو: اتّبع، واختصّ، على معنى الثلاثيّ؛ لأنّ فيهما قوّة ليست في الثلاثيّ مجرّداً.

وكذا الأمر في حَمْل اعتصم (افتعل) على معنى استعصم؛ لأنّ قوّة الفعل المُوحَى بها في اعتصم غير معنى الطلب في استعصم، وقد حمل بعضهم (استعصم) على معنى المبالغة، والمبالغة فيه أشدّ من (اعتصم)[4]، وهو أمر لا ينفي كون (اعتصم) بناء قوّة ومبالغة أيضاً. ولا يخفى معنى

(1) انظر: ابن مالك، شرح التسهيل 456/3، أبو حيان الأندلسيّ، محمد بن يوسف(745هـــ/1344م)، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: محمد صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـــ، ج599/1

(2) ابن درستويه، أبو محمد عبدالله بن جعفر(347هـــ/958م)، **تصحيح الفصيح وشرحه**، تحقيق: محمد بدوي المختون، مراجعة رمضان عبدالتواب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، القاهرة، 1998م، ص 138. ونص الحديث:(مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ فَاسْتَمَعَ) كما ورد في: سنن أبي داوود، سليمان بن الأشعث(275هـــ/888م)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بلا تاريخ نشر. ج1، ص95، حديث رقم 345، باب في غسل الجمعة.

(3) ابن مالك، التسهيل 455/3

(4) انظر: أبو حيان، البحر المحيط 272/6

القوّة في الاتّخاذ، نحو: اتّقى، واشتوى، وما قيل في (ازداد، واهتدى) يقال فيهما من حيث القوّة والمبالغة. وما قولهم بالتصرّف والاجتهاد في بعض أمثلة الصيغة[1] إلاّ إشارة إلى معنى القوّة الذي تؤدّيه بنيتها، وكذا الأمر في معنى الخطفة، نحو: انتزع، واقتلع. وكذا معنى تفعّل، فالقوّة في الفعل (ادّلج) غيرها في تدلّج، وكذا في ادّخل غيرها في تدخّل.

وبناءً على ما سبق فإنّ المعنى الأساسيّ أو الغالب على صيغة افتعل هو معنى القوّة، ومما يؤيّد ذلك أنّ معنى القوّة كان أشهر معنى دارت عليه هذه الصيغة حين أحصى محمد عبدالخالق عضيمة أمثلتها في القرآن الكريم مع الإشارة إلى معانيها[2].

وما سبق من ضبط معاني (افتعل) يمكن قياسه على معاني (تفاعل)، إذ لا يخفى أنّ معنى المشاركة فيها غالب على ما سواه وإن كانت غلبته لا تنفي وجود معاني أُخَر للصيغة، غير أنّ معنى المشاركة هو المعنى السائد[3]، وقد ذهب ابن مالك إلى أصالة تفاعل في معنى المشاركة وأولويّته به حين قارن معنى المشاركة ما بين افتعل وتفاعل، قال: « ويدلّ على أصالة (تفاعل) في المعنى المذكور (يعني المشاركة) وأولويّته به أنّه لا يوجد افتعل دالّاً عليه دون مشاركة تفاعل، ويوجد (تفاعل) دالّاً عليه دون مشاركة افتعل، نحو: تناظر القوم، وتجادلوا، وتنازعوا، وتكالموا، وتبايعوا، وتساءلوا، وتقابلوا... وأمثال ذلك كثيرة»[4].

وقد ألمح القدماء إلى انحياز الصيغة الصرفيّة إلى معنى أساسيّ يغلب عليها وإن تعاورتها معانٍ أُخر، فمثلاً غلب على (انفعل) معنى المطاوعة وإن زاحمتها صيغة افتعل فيه، نقل الرضيّ عن سيبويه: «أنّ الباب في المطاوعة انفعل، وافتعل قليل، نحو: جمعته فاجتمع، ومزجته فامتزج»[5].

وقد تداخلت المعاني وأمثلتها فيما ذكره النحاة والصرفيّون في صيغة (تفاعل)، فلا يبدو الحدّ واضحاً بين المطاوعة في مثل تعاطى وتوراى، ومعنى الثلاثيّ في مثل: تجاوز، وتجافى، وتعالى، وكذلك معنى تفعّل فيها، نحو: تعاهد بمعنى تعهّد.

والأمر نفسه بين الروم في مثل: تقاربت، وتراءيت، والتدرج، في نحو: تساقط، وتقارب، والطلب نحو: تقاضيت، بل إنّ معنى المشاركة في مثل تراءيت بارز وجليّ، بمعنى يراني وأراه.

(1) انظر: أبو حيان، ارتشاف الضرب 175

(2) انظر: محمد عبدالخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن، قسم2، ج 1: 508- 545

(3) انظر: محمد عبدالخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن، قسم2، ج 1: 626- 655

(4) ابن مالك، جمال الدين محمد بن عبدالله(672هـ/1273م) **إيجاز التعريف في علم التصريف**، تحقيق: محمد المهدي عبدالحي عمار سالم، ط1، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنوّرة، 2002م، ص173

(5) الرضي الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب 108/1(لم أعثر على هذه العبارة نصّاً في كتاب سيبويه)

والأمر نفسه بين التكلُّف نحو: تثاقل، وتناسى، والإيهام، نحو: تغافلت، وتعاميت، وقد فرّق الرضيّ بين الإيهام والتكلّف تفريقاً دقيقاً، قال:« معنى تغافلت: أظهرت من نفسي الغفلة التي هي أصل تغافلت، فتغافل على هذا لإيهامك الأمر على مَن تخالطه وتُري من نفسك ما ليس فيك منه شيء أصلاً، وأمّا تفعّل في معنى التكلُّف، نحو: تحلّم، وتمرّأ فعلى غير هذا؛ لأنّ صاحبه يتكلّف أصل ذلك الفعل، ويريد حصوله فيه حقيقةً ولا يقصد إظهار ذلك إيهاماً على غيره أنّ ذلك فيه، وفي تفاعل لا يريد ذلك الأصل حقيقةً ولا يقصد حصوله له»[1]

2. صيغة افتعل ومعنى المشاركة

سبقت الإشارة إلى أنّ معنى المشاركة غالب في (تفاعل) ومتأصّل فيها، غير أنّ صيغة افتعل نازعتها هذا المعنى على الرغم من أنّ المعنى المتأصّل في (افتعل) هو القوّة، ويبدو لي أنّ معنى المشاركة في (افتعل) طارئ، وإنّما استعملت حين استعملت لتدلّ على المبالغة والقوّة ولكنّها صادفت أفعالاً لا تحصل إلاّ بالمشاركة فاختلط في معنى الصيغة المشاركة بقوّة الفعل، وقد سبقت إشارة ابن مالك إلى ما هو قريب من هذا من خلال عدّه أصالة تفاعل في المشاركة وأولويّتها بها. يُزاد على ذلك أنّ الأفعال التي على (افتعل) وتفيد معنى المشاركة هي قليلة جدّاً قياساً إلى الأفعال التي يأتي معنى المشاركة الصرفيّ فيها على (تفاعل)، وسبب قلّة أفعال[2] (افتعل) أنّها مقتصرة على الأفعال التي لا تحصل إلاّ بالمشاركة، ولا يصلح إسنادها لواحد، نحو: اقتتل، واختصم، واجتور، كما أنّ بناء افتعل لا ينصرف إلى المشاركة في كل فعل جاء منه، فلو قيل مثلاً: انتزع القوم، ونحن نريد تنازعوا لسبق المعنى إلى قوّة انتزع وليس إلى المشاركة فيها، وكذا لو قلنا: ابتاعوا ونحن نقصد معنى المشاركة (تبايعوا) لسبق المعنى إلى غير المشاركة.

فإذا أردنا معنى المشاركة من الفعل (صرخ) مثلاً، فإنا نجده في (فاعل)،أي: صارخ أو (تفاعل)، أي: تصارخ، على ما بينهما من فرق دقيق ذكره النحاة في موضعه، أمّا معنى المبالغة فنجده في صيغة افتعل (اصطرخ)، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾[3]، وحين استعملت هذه الصيغة للمبالغة(قوّة الفعل) وأسندت إلى ضمير الجماعة داخلها معنى المشاركة، ومن هنا فسّر بعضهم (يصطرخون) في الآية على معنى المشاركة أي: يتصارخون، إلاّ أنّه لم يغب عنهم قوّة يصطرخون وامتيازها بالمبالغة على (يتصارخون)، قال الزمخشريّ: «أي يتصارخون، يفتعلون من

(1) الرضي الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب 103/1.

(2) قلّة الأفعال مستفادة من نص سيبوية، الكتاب 69/4: (... وقد يشركه افتعلنا) لأن قد هنا للتقليل، كما أنها بيِّنة في الواقع اللغويّ الاستعماليّ.

(3) فاطر 37.

الصراخ، وهو الصياح بجهد ومشقة»[1]، وقال الزركشيّ: «يصطرخون أبلغ من يتصارخون»[2]، ولعلّه يعني أنّ فيه قوّة ليست في يتصارخون، التي فيها معنى المشاركة أظهر، في حين أنّ قوّة الفعل أظهر في يصطرخون.

ويمكن قياس ذلك على الأفعال التي جاءت على افتعل وأفادت قوّة المشاركة، إذ الأصل فيها المبالغة باستعمال افتعل، إلاّ أن المشاركة داخلتها من حيث تَعَدّدَ فاعلُها، ولعلّ هذا ما يفسِّر تعاور الصيغتين على معنى المشاركة ثم شيوعهما في الاستعمال حتى كادتا تترادفان على هذا المعنى مع الفرق الدقيق الذي سبق توضيحه بينهما. ولا يبعد في سَنَن التطوّر اللغويّ أن تنتهي الصيغتان إلى معنى المشاركة وحسب، وذلك بالنظر إلى توسّع المعاني المتقاربة واتّحادهما استعمالاً حتى لا يكادان يختلفان، وهو ما يبرّر عدم تفريق كثير من أهل اللغة بين الصيغتين في معنى المشاركة، وما يسوّغ بعض الاستعمالات الفصيحة لإحداهما موضع الأخرى.

3. القدماء والدمج بين الصيغتين في معنى المشاركة

ذهب كثير من اللغويّين إلى اشتراك (تفاعل) و (وافتعل) في معنى المشاركة دونما تفريق على ما هو ظاهر عباراتهم، فقد ذكر سيبويه: «وأمّا تفاعلت فلا يكون إلّا وأنت تريد فعل اثنين فصاعداً.... وقد يشركه افتعلنا، فتريد بهما معنى واحداً، وذلك قولهم: تضاربوا واضطربوا، وتقاتلوا واقتتلوا، وتجاوروا واجتوروا»[3]، وتبع سيبويه على هذا جمعٌ من النحاة تعاقبوا على نقل النص نفسه أو أوردوا ما هو بمعناه[4].

وانتقل مذهب اللغويين المتقدّم إلى مصنّفات التفسير وعلوم القرآن إذ نادراً ما نجدها يفرّقون بين افتعل وتفاعل إذا أفادتا معنى المشاركة، فلا فرق عند أصحابها مثلاً بين تقاتل القوم واقتتلوا، وتخاصموا واختصموا.

(1) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(538هـ/ 1134م)،**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ، ج615/3

(2) الزركشي، أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله(794هـ/1391م)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957م، ج34/3

(3) سيبويه، الكتاب 69/4

(4) نظر: ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل(316هـ/928م) **الأصول في النحو**، تحقيق: عبالحسين الفتلي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م، ج120/3، أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد(377هـ/987م)، **التعليقة على كتاب سيبويه**، تحقيق: عوض بن حمد القوزي، ط1، بلا ناشر، 1990م، ج137/4، ابن جنيّ، أبو الفتح عثمان بن جنيّ (392هـ/1001م)، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، بلا رقم طبعة، المكتبة العلمية، بلا تاريخ، ج124/1 ، الرضي الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب 109/1 ، ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم(276هـ/889م) **أدب الكاتب**، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بلا تاريخ نشر، ص469 ، ابن عصفور، الممتع في التصريف 131

وعبارة اللغويّين المتقدّمة ومَن تابعهم تعني أحد أمرين: إمّا أنّهم يعنون الترادف التامّ حقيقةً على ما هو ظاهر عبارتهم، فيكون معنى المشاركة إذ ذاك في (افتعل) هو هو في (تفاعل) وهو نصٌّ صريح على الترادف بين الصيغتين، وإن كان الأمر كذلك فلا معنى لتواردهما في الاستعمال الفصيح، ولا لتخيُّر إحداهما على الأخرى إلاّ مراعاة الجانب الشكليّ من تنويع بين الصيغ، ومناسبة بعضها لبعض بما يمليه الجرس والسياق؛ لأنّهما في هذا الاعتبار لا تعدوان أن تكونا بدائل لفظيّة لمعنى واحد. والأمر الثاني: أن تُحمَل عبارتهم السابقة على الاتّساع وأنّهم يقصدون أنّ الصيغتين تترادفان على معنى المشاركة العامّ، دون أن يكون غرضهم هنا البحث في الاختلافات الدقيقة بين الصيغ، وهو أمر يمكن قياسه على نهجهم في تفسير المفردات المتقاربة في معناها، فإنّهم غالباً ما يذهبون إلى تفسير لفظ بلفظ آخر على أنّهما متساويان، أو مترادفان وإن كان بينهما فروق دلاليّة ومعجميّة دقيقة، لا تجعلهما في الحقيقة متساويين وإن كانا متقاربين. وهو أمرٌ يعود إلى التوسع الدلاليّ الذي يكاد ينتهي بالمفردتين إلى معنى واحد.

انظر إلى قول ابن جنيّ: «فأمّا تفسير أهل اللغة أنّ استاف القوم بمعنى تسايفوا فتفسير على المعنى كعادتهم في أمثال ذلك، ألا تراهم قالوا في قول الله عز وجلّ ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾[1] إنّه بمعنى مدفوق، فهذا -لعمري- معناه، غير أنّ طريق الصنعة فيه أنّه ذو دَفْق كما حكاه الأصمعيّ عنهم من قولهم: ناقة ضارب، وتفسيره أنّها ذات ضرب أي ضُرِبت »[2]

وأنا أميل إلى الأمر الثاني من الأمرين السابقين توجيهاً لعبارة النحاة ومن تابعهم في عدِّهم (افتعل وتفاعل) مترادفتين على معنى المشاركة، وهو ما يتفق مع الفرضية التي أقمت البحث عليها وهي اختلاف معنى المشاركة فيما بين الصيغتين اختلافاً دقيقاً ينفي الترادف التامّ بين البنيتين، يشدُّ أزري في ذلك أمران: نظريٌّ وتطبيقيٌّ، أمّا النظريّ فهو ما وجدته من مذاهب قديمة وحديثة تركن إلى هذا الجانب، وأما التطبيقيّ فهو ما قادني إليه البحث من أدلّةٍ نصيّة حين بحثت في الاستعمال الفصيح: قرآناً وشعراً.

وفيما يأتي بسطٌ لهذين الأمرين:

1- إنّ أوّل ما يطالعنا في رفض الترادف الصرفيّ نصٌّ لابن درستويه نقله السيوطيّ في المزهر، قال: «لا يكون فَعَل وأفعل بمعنى واحد كما لم يكونا على بناء واحد إلاّ أن يجيء ذلك في لغتين مختلفتين، فأمّا في لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما يظنّ كثير

(1) الطارق 6.

(2) ابن جني، الخصائص 152/1.

من اللغويّين والنحويّين»[1]، ونصُّ ابن درستويه السابق وإن جاء عند وقوفه على الترادف بين فَعَلَ وأفْعَلَ فإنّه يستفاد منه التعميم الذي ذكره وهو عدم توارد بنائين على معنى واحد.

وقال ابن جنيّ: «فإذا كانت الألفاظ أدلّة المعاني ثم زيدَ فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به، وكذلك إن انحُرِف به عن سَمْتِه (وهَدْيَتِه) كان ذلك دليلاً على حادث متجدّد له»[2].

وقد نفى بعض الدارسين المحدثين الترادف الصرفيّ عن العربيّة، قال فاضل السامرائي: «العربية تميل إلى التخصّص فلا تجعل صيغتين بمعنى واحد كما هو واضح من استعمالاتها، وقد خصّت كلّ صيغة باستعمال ومعنى»[3]. وقد خلص عودة الله القيسيّ إلى استنتاج يكاد يكون رئيساً في كتابه (سرّ الإعجاز في الصيغ المشتقة من أصل لغويّ واحد في القرآن الكريم) وهو أنّه لا ترد صيغتان بمعنىً واحد[4]. وكانت بنت الشاطئ قد أشارت إلى هذا الأمر إشارة عامّة تشمل الصيغ الصرفيّة والمفردات المعجمية، قالت:« ما من لفظ (تعني في القرآن الكريم) يمكن أن يقوم غيره مقامه»[5].

2- أمثلة من الاستعمال اللغوي الفصيح على(افتعل وتفاعل) وما بينهما من فرق لطيف:

أ. اشتبه وتشابه

من الأدلّة التي يمكن أن تكون عماداً رئيساً في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾[6]، ثم قوله تعالى في آية أخرى مشابهة ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾[7]، فالعبارتان متّفقتان تركيباً غير أنّ إحداهما جاءت بالصيغة (مشتبه) والثانية بالصيغة (متشابه)، وهو أمر يدعو إلى البحث عن مسوِّغ يُحمَل عليه هذا الاختلاف، ولا أرى لذلك مسوِّغاً إلّا ما طرأ من معنى في إحداهما دون الأخرى، أو هو بعبارة أخرى: اختلاف الإشارة الدلالية في إحداهما عن الأخرى.

وعند النظر في أقوال المفسّرين في هاتين الآيتين وما يشبههما نجد أنّ أغلبهم لم يأبه بالفرق بين الصيغتين، وعدّها أكثرهم من ترادف الافتعال والتفاعل في الدلالة على المشاركة، قال

(1) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر(911هـ/1505م)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ط3، مكتبة دار التراث، القاهرة، بلا تاريخ، ج384/1.

(2) ابن جنيّ، الخصائص 268/3.

(3) السامرائي، فاضل صالح، **معاني النحو**، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، بلا تاريخ، ج505/2.

(4) القيسيّ، عودة الله منيع، **سرّ الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغويّ واحد في القرآن الكريم**، ط1، دار البشير، ومؤسسة الرسالة، عمّان، 1996م، ص 50.

(5) بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن، **الإعجاز البياني في القرآن ومسائل ابن الأزرق**، ط3، دار المعارف، مصر، بلا تاريخ، ص210.

(6) الأنعام 99.

(7) الأنعام 141.

الزمخشريّ: «اشتبه الشيئان وتشابها، كقولك استويا وتساويا، والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً»[1]، وذهب المذهب نفسه الرازيّ[2]، وابن الزبير[3]، وأبو حيان الأندلسيّ[4].

غير أنّ اختيار النص المحكَم لصيغة افتعل مرّة وتفاعل في المرّة الأخرى في سياق تركيبي واحد لا يجعل المتدبّر يركن إلى مذهب المفسّرين السابق الّذي اقتفوا فيه أثر النحاة، وهو ما يجعلني أُرجِّح المسوِّغ الدلاليّ وهو اختلاف الإشارة الدلاليّة في كلٍّ منهما.

وقد وقف بعض المفسرين عند هاتين الآيتين متأنيّاً فأدرك ذلك الفرق اللطيف بينهما، قال البقاعيّ في نظم الدُرَر وهو يلتمس الفرق بين الآيتين مبيّناً سرّ عدول الأولى إلى مشتبه دون متشابه على الرغم من تشابه السياقين: قال: « ... وكان افتعل يأتي للتعريف[5] وهو المبالغة في إثبات أصل الفعل، والاجتهاد في تحصيله والاعتمال، فكان حصوله إذا حصل أكمل، قال بانياً حالاً على كلِّ ما تقدّم(مشتبهاً) أي في غاية الشبه بعضه لبعض حتى لا يكاد يتميّز، فلو قطع ثمرتا شجرتين منه لم يتميّز ثمرة هذه من ثمرة هذه، فلا يقابله حينئذٍ نفي التفاعل، فإنّه لمجرّد مشاركة أمرين أو أكثر في أصل الفعل»[6].

فالفرق إذاً بين الصيغتين بيِّنٌ، وهو فرق دلاليّ، وبناء عليه وعلى السياق الدلاليّ الذي جاءت فيه كلٌّ من العبارتين السابقتين فإنّه لا يستقيم أن تحلَّ إحداهما موضع الأخرى؛ لأنّهما مختلفتان دلاليّاً، وليس الأمر مجرّد تنويع صيغ كما ذهب بعضهم[7].

وعلى الرغم من عدم تفريق أصحاب المعاجم بين الصيغتين تفريقاً صريحاً إلاّ أنّنا نكاد نلمح تفريقاً من طرف خفيّ فيما أوردوه يتّفق مع ما تقدّم، إذ جنحت دلالة الاشتباه إلى الالتباس والإشكال، وهي تأتي من غاية الشبه وليس من مجرّد التشابه، وغاية الشبه تناسبها صيغة (افتعل) لأنّها بناء قوّة ومبالغة وليست كتفاعل التي هي لمجرّد المشاركة.

(1) الزمخشري، الكشاف 52/2.

(2) انظر: الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر(606هـ/1209م)، **مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)**، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ، ج138/7.

(3) انظر: ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم(708هـ/1209م) **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**، تحقيق: سعيد الفلاح، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ج465/1، 466.

(4) انظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط 599/4.

(5) هكذا هي الكلمة في المصدر، وهو مصطلح لم يرد إلا عنده فيما أعلم.

(6) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر(885هـ/ 1480م)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بلا تاريخ نشر، ج212/7.

(7) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل 466/1، وانظر: ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج402/7.

قال ابن منظور ناقلاً عن ابن الأعرابي:« وسألته عن قوله تعالى ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[1]، فقال: ليس من الاشتباه المشكل إنّما هو من التشابه الذي هو بمعنى الاستواء، وقال الليث: المشتبهات من الأمور: المشكلات»[2]، وكان الأزهري قد فسّر (التبس ولبّسَ) بالاشتباه في قول الشاعر يعني إبلاً:

يَخْرجنَ عَن مُلتَبِسٍ مُلَبَّسِ تَنْمِيسَ ناموسِ القَصا المُنمَّسِ

قال الأزهريّ: «يخرجن عن بلدٍ مشتبه الأعلام»[3].

وعبارة مشتبه الأعلام وما شابهها كانت دارجة في شعر الشعراء، إذ جنح استعمالهم إلى صيغة اشتبه، لإفادة قوّة تشابه نواحي الصحراء وعدم تميُّز معالمها، قال زهير:

وخَرْقٍ تَهلِكُ الأرواحُ فيه بَعيدِ الغَوْرِ مُشتَبِهِ المِتانِ[4]

وقال الآخر:

مَتْلَفٌ مُشْتَبَـــهٌ أعلامـــه يُعْتِقُ البَيْضَ به الرُمْدُ الشُّرُد[5]

وقال رؤبة:

وقاتِمِ الأعْماقِ خاوي المُخْتَرَقْ مُشْتَبِه الأعْلامِ لَمَّاعِ الخَفَقْ[6]

غير أنّ استعمال الشعراء هذا لم يقف عند صيغة (اشتبه)، ولكنّهم استعملوا صيغة (تشابه) استعمالاً قريباً مما تقدّم، كقول حميد بن ثور:

وتِيهٍ تَشابَهَ صُعْدانُهُ ويفْنَى بِهِ الماءُ إلَّا السَّمَلْ[7]

لكنّ الاستعمال الأول كان أظهر، ولا مانع يمنع من حمل صيغة (تشابه) في البيت السابق على مجرّد التشابه لا الاشتباه المشكل.

---

(1) البقرة 25.

(2) ابن منظور، محمد بن مكرم(711هـ/1311م)، **لسان العرب**، ضبط وتصحيح: أمين محمد عبدالوهاب، محمد صادق العبيدي، ط 3، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت 1999م، ج24/7 (شبه).

(2) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد(370هـ/980م)، **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2001م، ج13/ 17.

(3) الأعلم الشنتمري، يوسف بن سليمان(476هـ/1083م)، **شعر زهير بن أبي سلمى**، تحقيق فخر الدين قباوة، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت – لبنان، 1980م، ص 285، والخرق: البلد البعيد الأطراف، والمتان: جمع متن وهو ما نشز من الأرض.

(4) الشيباني، أبو عمرو إسحاق بن مرّار(206هـ/821م)، **الجيم**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مراجعة: محمد خلف أحمد، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1974م، ج2/ 256. والمتلف الفلاة المهلكة، والشطر الثاني وصف النعام.

(6) البروسي، وليم بن الورد، **مجموع أشعارالعرب، وهو مشتمل على ديون رؤبة بن العجّاج، وعلى أبيات مفردة منسوبة إليه**، دار ابن قتيبة، الكويت، ص 104.

(7) **ديوان حميد بن ثور الهلالي ، وفيه بائية أبي دؤاد الإيادي**، تحقيق عبدالعزيز الميمني، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة 1951م، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م، ص 128.

يزاد على ذلك أنّ صيغة (تشابه) التي تعنى مجرّد التشابه دون قوّته لا تخلو من إفادة الالتباس والاختلاط، كقوله تعالى ﴿إِنّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾[1]، غير أنّ صيغة اشتبه أقوى في الدلالة على الالتباس والاختلاط كما تبين سابقاً.

ب. التقى وتلاقى

تأتي صيغة(التقى) غالباً في المعاني التي تدلّ على قوّة معنى المشاركة والمبالغة فيها، فمن مواضع ورودها في القرآن الكريم، مثلاً، قوله تعالى ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[2]، وقوله تعالى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾[3]، وغير خافٍ أنّ صيغة (التقى) المتقدّمة استخدمت في مجال اللقاء في الحرب؛ لما في لقاء الحرب من قوّة صدام وشدّة اختلاط، ومن ثم لا تؤدّي صيغة (تلاقى) التي تفيد مجرّد المشاركة أو مجرّد اللقاء هذا المعنى، ويؤازر هذا قوله تعالى﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[4]، ففي التقاء البحرين قوّة وتداخل وشدّة اندماج، ولو استعمل (يتلاقيان) لأدّت معنى الملامسة واللقاء فقط.

ولم يرد في القرآن الكريم صيغة (تلاقى) أو مشتقّاتها إلاّ في قوله تعالى (لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)[5]، ولا يخفى أنّ المعنى المراد من اللقاء هنا هو مجرّد اللقاء وحدوثه وليس القوّة فيه أو شدّته من حيث أصل الفعل، على غير ما كانت قوّة اللقاء مَعنيّة في لقاء الجمعين ولقاء الفئتين ولقاء البحرين في الآيات المتقدّمة. فيوم التلاقي هو يوم القيامة، وهو يوم تتلاقى العباد، أو يتلاقى فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق[6].

وجاء الحديث الشريف، في قوله صلّى الله عليه وسلّم: ((إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ))[7] على النسق السابق.

وإذا ما التمسنا هذا الاستعمال في الشعر الفصيح فإنّنا نجد أنّ أغلب استعمالات (التقى) تأتي في معنى قوّة اللقاء والمبالغة فيه، كقوله:

(1) البقرة 70، وانظر : أبو حيان الأندلسيّ، البحر المحيط،ج 21/3.

(2) آل عمران 155.

(3) آل عمران 13.

(4) الرحمن 19.

(5) غافر 15.

(6) انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(310هـ/922م)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، 2000م، ج365/21.

(7) البخاري، محمد بن إسماعيل(256هـ/869م) ، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه(صحيح البخاري)**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي)، 1422هـ، ج15/1 باب(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا)، حديث رقم 31.

فلما التقينا بيّن السيفُ بيننا لسائلة عنا حفيّ سؤالها[1]

وقول النابغة:

جوانحَ قد أيقَنّ أنّ قبيلَه إذا ما التقى الجمعانِ أوّلُ غالبِ[2]

وقد استعملها بعض الشعراء في غير معنى اللقاء في الحرب، ولكنّها كانت لتأدية معنى قوّة اللقاء أيضاً، كقول المُمَزَّق العبديّ:

وَقد ضمرت حَتَّىَ التقى من نسوعها عُرى ذِي ثَلاثٍ لمْ تَكُنْ قَبلُ تَلْتَقِي[3]

وقول ذي الرمّة:

إلى ابْن أبي العَاصِي هشامٍ تعسّفتْ بِنَا الصُّحْمُ من حَيْثُ التقَى الغافُ والرملُ[4]

وقول الآخر:

بِحَيْثُ التقى البِرْكان والحاذُ والغَضَى ببِئْشة وارفضَّت تلاعا صدورُها[5]

وللدلالة على شدّة الالتقاء والتداخل في (التقى) في الأبيات الثلاثة السابقة كان استعمال التقى أوفق وأبلغ؛ لأنّ استعمال (تلاقى) في هذا المعنى لا يوحي بأكثر من التلاقي والتلامس، كقول طرفة بن العبد:

كأَنّ عُلُوبَ النِّسْعِ في دَأياتِها مَوارِدُ مِنْ خَلقاءَ في ظَهرِ قَرْدَدِ

تَلاقَى، وأَحياناً تَبينُ، كأنّها بَنائِقُ غُرٌّ في قَميصٍ مُقَدَّدِ[6]

وقول الآخر:

فَلَمَّا أَتَيْنَا السفح من بطن حَائِل بِحَيْثُ تلاقى طلحها وسيالها[7]

(1) المرزوقي، أحمد بن محمد(421هـ/1030م) **شرح ديوان الحماسة**، نشره: أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991م، ص 172.

(2) **ديوان النابغة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، بلا تاريخ، ص43.

(3) الأصمعي، أبو سعيد عبدالملك بن قريب(216هـ/831م) **الأصمعيات اختيار الأصمعيّ**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبدالسلام هارون، ط7، دار المعارف، مصر، 1993م، ج1/165، والنسع سير تُشدُّ به الرحال.

(4) ذو الرمّة، غيلان بن عقبة(117هـ/735م)، **ديوانه، شرح الإمام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهليّ، رواية الإمام أبي العبّاس ثعلب**، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، ط1، مؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، 1972م. ج3/ 1618. والغاف شجر، الصحم: الإبل يخالط سوادها صفرة أو غُبرة.

(5) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (458هـ/1065م)**المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م، ج7/26، (والبركان والحاذ والغضى: شجر).

(6) انظر: **ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلم الشنتمري**، تحقيق درية الخطيب، لطفي الصقال، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دائرة الثقافة والفنون، دولة البحرين، 2000م، 35، 36. علوب النسع: آثار سير الرحل، ودأياتها: ضلوعها، والموارد: طريق الورّاد، والخلقاء: الصخرة الملساء، وقردد: ما استوى من الأرض وصلُبَ، يقول: آثار النسع في جلد هذه الناقة مرة تتّصل ومرة تتباين، فهي كهذه الطرق التي تتلاقى مرة وتبين أخرى.

(7) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة 171. والطلح والسيال شجران.

وقول العُجَيْر السّلُوليّ:

وخالَط مِثل اللَّحْم واحْتَلّ قَيْده بِحَيْثُ تَلاقَى عامِرٌ وسَلُولُ [1]

إذ يبدو أنّ مؤدّى (تلاقى) هو تحديد نقطة مكانيّة من غير الإشارة هنا إلى اختلاط واندماج المتلاقيين وقوّة لقائهما.

وقد استعمل بعض الشعراء صيغة (تلاقى) في لقاء الحرب، كقول زهير:

كأَنَّ إذا ما تَلاقَى القَوْمُ في فِئَة تَحْمِلُهُ النَّجَداتُ المَحْمِلَ الأَزِقا[2]

وقول الآخر:

كَأَنَّ شُجَاعًا أَقْرَعَ الرَّأْسِ يَتَّقِي إِذَا مَا تَلَاقَى الْخَيْلُ أَوْ جِلْدُ أَجْرَبَا[3]

وقول خالد بن الصقعب:

كأنّ عرينَ أيْكتِه تَلاقى به جَمْعانِ من نَبَطٍ وروم[4]

ولعل ضرورة إقامة الوزن كانت هي الداعية لذلك.

ج. اقتتل وتقاتل

لم ترد صيغة تقاتل أو مشتقاتها في القرآن الكريم وعُدِل عنها إلى افتعل عند استعمال معنى المشاركة من هذا الفعل صرفيّاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[5]، وقوله تعالى: وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[6]، ولعلّ سبب هذا العدول أنّ المراد ليس مجرّد الاشتراك في القتال وإنّما قوّة حدوث هذا الفعل، فالاشتراك بالقتال والاشتباك أكثر من أن يكون مشاركة وحسب، إذ لا يخلو من قوّة تداخل وتواقع، ولمّا كانت (اقتتل) تقيد المشاركة زيادة على قوّة تأدية الفعل والمبالغة فيه عُدِل إليها في الآيات السابقة.

وقد عدل زهير إلى صيغة (افتعل) عن (تفاعل) وهو يصف شدة لقاء في معركة، قال:

يَطْعَنُهُم ما ارتموا حتى إذا اطّعنوا ضاربَ، حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا[7]

(1) الأزهري، تهذيب اللغة 251/15.

(2) أبو عمرو الشيباني، الجيم 73/2، هكذا أورده الشيباني، ولم أعثر عليه في ديوان زهير ولا في شرح شعرة لثعلب،ولا في شرح شعره للأعلم الشنتمري، وقد أشار محققو الجيم إلى عدم ورود البيت في القصيدة التي من البحر والرويّ، والبيت على هذه الرواية غير مستقيم وزناً.

(3) الحربي، إبراهيم بن إسحق(285هـ/898م)**غريب الحديث**، تحقيق: إبراهيم سليمان العايد، ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1405هـ، ج1020/3.

(4) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(538هـ/1143م) **أساس البلاغة**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج241/2.

(5) البقرة 253.

(6) الحجرات 9.

(7) انظر: الأعلم الشنتمري، شرح ديوان زهير، 77.

فاختار صيغة افتعل مرّتين (ارتموا، واطّعنوا) للدلالة على شدّة ترامِيهم وتطاعنهم، ولو قال: تراموا، وتطاعنوا لكانت الدلالة تشير إلى مجرّد اشتراكهم في الرمي والطعن، دون الإشارة إلى قوّتهما. قال الهُذَليّ[1]:

فَتنازلا وتواقَفَتْ خيْلاهمُا ... وكلاهما بطلُ اللقاء مُخَدَّعُ
يَتناهبانِ المجدَ كلٌّ واثِــقٌ ... ببلائِهِ واليومُ يــومٌ أشنــَعُ
....
فتخالسا نفسيْهما بنوافـــذٍ ... كَنوافذِ العُبُطِ التي لا تُرقَعُ

فوَصَفَ اللقاءَ -وهو لا شكّ شديد- بصيغ التفاعل: تنازلا، وتواقفت، ويتناهبان، وتخالسا، وليس في هذا ما ينقض ما تقدّم؛ إذ إنّ دلالة الصيغ تشير إلى أنّ الشاعر أراد مجرّد معنى المشاركة في هذه الأفعال، لا سيّما التواقف والتخالس، وما يُلمح من قوّة في التنازل، والتناهب إنّما هو آتٍ من معناها المعجميّ.

د. اختصم وتخاصم

لم يفرّق أصحاب المعاجم ولا أهل التفسير بين (اختصم) و(تخاصم) من حيث المعنى الصرفي كما هو شأن أغلبهم في عدِّ هذا من المترادف كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وأغلب ما ورد في القرآن الكريم من هذه المادة هو (اختصم) كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾[3]، و﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[4]، وجاءت صيغة (تخاصم) في موضع واحد في قوله تعالى:﴿إِنّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[5]، ففي الآيات الأوَل كان غرض الدلالة هو إظهار شدة الخصام، على حين أنّ الآية الأخيرة لم يكن الغرض فيها بيان شدّة الخصومة وإنّما حصولها والله أعلم. قال النسفيّ: «ولمّا شبّه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين سمّاه تخاصماً، ولأنّ قول الرؤساء لاَ مَرْحَباً بِهِمْ وقول أتباعهم بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ من باب الخصومة فسمّى التقاول كلّه تخاصماً لاشتماله على ذلك»[6].

(1) السكريّ، الحسن بن الحسين(275هـ/888م) **شرح أشعار الهذليين**، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، مراجعة: محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة، بلا تاريخ، ج38/1، 40.

(2) آل عمران 44.

(3) الشعراء 96.

(4) الحج 19.

(5) ص 64.

(6) النسفي، أبو البركات عبدالله بن أحمد(710هـ/1310م) **مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)**، تحقيق: يوسف علي بديوي، مراجعة:محيي الدين ديب مستو، ط1، دار الكلم الطيب، بيروت، 1998م، ج163/3

هـ. اختلط وتخالط:

التخالط هو المشاركة والخلطة والتداخل، أمّا الاختلاط فهو قوّة الخلط والتداخل وامتزاج المخلوطين[1] معاً، فتخالَطَ الشيئانِ ليس فيه قوّة اختلاط وامتزاج كاختلطَ الشيئان.

قال تعالى: ﴿مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾[2]، والقول هنا في تحريم الشحوم التي حرّمها الله عزّ وجلّ على بني إسرائيل[3] واستثنى منها الباري عزّ وجلّ تلطّفاً ما اختلط بعظم، وذلك لشدّة التداخل بين الشحم والعظم، فأدت صيغة افتعل (اختلط) قوّة التخالط وتداخل المخلوطيْن وامتزاجهما.

ولا تخفى قوة الاختلاط في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾[4]، وقال الشاعر:

فقد لَحِقَ الأَسافِلُ بالأعالي وماجَ اللؤمُ واختلط النجارُ[5]

ولا يخفى أنّ معنى القوّة والمبالغة مراد هنا في الاختلاط حتى يصيب المعنى مبتغاه وهو ما لا يُؤَدّى لو قيل: وتخالط النجار.

وخلاصة ذلك أن هذا مما يؤيّد ما نحن فيه من دلالة صيغة افتعل على قوة المشاركة وارتباطها بها، في حين أن تفاعل تخلو من قوة المشاركة وتتعين للمشاركة وحدها، كما بيّنتُ.

(1) انظر: ابن منظور، لسان العرب 173/4(خلط).

(2) الأنعام 146.

(3) انظر: الطبري، تفسير الطبري 205/12.

(4) يونس 24.

(5) السيرافي، يوسف بن أبي سعيد (385هـ/995م) **شرح أبيات سيبويه**، تحقيق: محمد علي الريح هاشم، مراجعة: طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة، 1974م، ج156/1.